كلا لن نخاف

لم نبدأ بالشعور في اي حضيض سحيق كنا إلا في السنوات الأخيرة. من دهشة الناس حيال القصص التي يسمعون منا صرنا ندرك هول ما كنا فيه. دهشتهم أعادت تربيتنا. استبطنّا استنكارهم للوحشية كما قد يستبطن الطفل اشمئزاز والديه من القذارة او نفورهم من الأذى. استعدنا شيئا فشيئا شعورنا بالعدالة، فهالنا الظلم الفادح الذي اصابنا. انخفضت عتبة الشعور بالظلم وحققنا درجة بسيطة من الارتقاء الأخلاقي. الطغيان يحمي نفسه بخفض الشعور الاخلاقي عند ضحاياه، تعطيل قدرتهم على الاستنكار والاعتراض. اليوم لا يزال حسنا بالعدل والظلم محدودا. فالناس لا يحكمون على امر بأنه ظالم إلا بقدر ما يستطيعون استنكاره والاحتجاج عليه وتغييره، إن حوّرنا، يا سمير، فكرة شيخنا ماركس. نعجز عن تغيير الأحوال فنميل إلى اعتبارها عادلة. ولا نستطيع الاحتجاج على الدولة الأمنية بغير صوت خافت، فنعتبر من يستطيعون الاحتجاج مدللين مغنجين. على أن احتجاجنا هذا، ولو خافتا، دليل على أن مرحلة الدولة الأمنية أخذت تنطوي بالمعنى التاريخي. بالمعنى التاريخي؟ كان ماركس يفكر بكل الأشياء على خلفية التاريخ. لم نعد نفعل. صبرنا نفد. ولم يعد يعزّينا ان الدولة الأمنية تحفر قبرها بيدها، وأن أجهزتها بالذات ستكون حجر الطاحون الذي تحمله في عنقها ليغرقها في نهر التاريخ. صرنا أكثر انانية. نفكر في مقياس العمر الإنساني. نخشى مما تنتجه الغيريات وعقائد الخلاص و"المعاني التاريخية" من سلطات وحشية.

الطنط والوحش

في سجن تدمر كان عناصر الشرطة العسكرية المدربون على القسوة، المنتخبون لذلك المحبس الحزين، يعيّروننا بأننا طنطات. تعرف ما معنى طنط يا سمير؟ في اللغة العسكرية والعقيدية السورية، الطنط هو الفتى الدلوع الناعم الذي لا يتحمل المصاعب. غنوج. مشكوك في رجولته أيضا. كان في اعتراضنا على النظام الأمني غنج لا يطاق ووقاحة لا تحتمل. وما يثير الاحتقار اننا كنا نحتج عليه ونريد تغييره، والعالم، بالحبر والورق. ليس غير الطنطات يفعلون ذلك! هل تتخيل يا سمير تعبير الطنطية الثورية التي تريد تغيير العالم؟

نقيض الطنط هو "الرجّال" (أو القبضاي أو الوحش)، الذكر الخشن، الفحل، الذي يحتقر النعومة والنساء والرهافة والرقة. بصورة متناقضة كانت صفتنا الطنطية تسوّغ تعذيبنا الذي يفترض ان يساهم في تخشيننا وتأهيلنا تأهيلا وطنيا صحيحا. نعذب لأننا طنطات وكي نتطهر من طنطيتنا في الوقت نفسه. "الرجالية" أو القبضاوية جزء من التأهيل الوطني.

الطنط لا يقتل نملة، ولا يتحمل رؤية الدم. القبضاي يقتل، الدم جزء من عالمه الطبيعي. وحش! الوحش كلمة مديح ما بعدها مديح لعناصر "سرايا الدفاع" التي كان يقودها السيد رفعت الأسد قبل حلها عام 1984. الوحوش يربّون على الفتك بالضعفاء واحتقار الألم واقتحام الأخطار. يروون متفاخرين ما فعلوه في ملاعب الدم. الطنط أيضا هو ابن المدينة، الغني، الماكر، الألعبان. الرجّال القبضاي هو ابن القرية، القاسي، الذي يتحمل كل شيء. ابن المدينة سياسي وتاجر، ليبيرالي وبراغماتي، من تلقاء ذاته. الريفي عقيدي ومبدئي وثوري وفلاح ابن فلاح أو ابن بدوي تكوينيا. وإذا كان يكره شيئا فهو التاجر. فهذا يستغله ويستغفله معا، ويمثل كل ما ليس هو وما لا يستطيع أن يكون. البلاد السورية تحت الحكم القبضاوي منذ عام 1963.

الطنط والرجّال مدركان اساسيان في إيديولوجيا الحكم السوري، البعثي. لكن الحال مثل ذلك أو قريب منه في العقائد الشيوعية والناصرية والإسلامية. المناضل الشيوعي ينبغي أن يكون صلبا فولاذيا. ربما قرأت يا سمير روايتي "كيف سقينا الفولاذ؟" و"قصيدة تربوية": نشيدان للصلابة والقسوة. والعبوس: المناضل كثير التقطيب قليل الضحك. في ايامنا الأولى في السجن، ازدرى، منير ذو الثمانية عشر عاما، نعومته المفترضة. صار ينام على بلاط المهجع كي يروض جسده و"يقهر نفسه". طوال سنوات سمّيناه: منير قاهر النفس.

العقيدتان الناصرية والإسلامية تعليان كذلك من قيم الخشونة والصلابة والجهاد (مع تثقيل وزن المكون العضلي وتخفيف الروحي في الجهاد، على غرار أخينا أبو مصعب). في مصر الناصرية أيضا كان سجناء سياسيون يمضون اكثر من المدة التي قضت بها المحاكم. هل يعني ذلك، يا سمير، أن بنية أنظمتنا أسوأ من عدالتها هي نفسها!؟

كان ثمة درجة من التهافت في معارضتنا: نعارض نظاما قبضاويا بإيديولوجيات وثقافة سياسية قبضاوية. كانت حساسيتنا أخذت تتغير والحق يقال. لكنها عملية لم تكتمل وقتها ولا اليوم. "عالم أكثر مدنية" كما كتبت لي في إهداء كتابك: "عسكر على مين؟" هو عالم بلا قبضايات، ولا تغريه القبضاوية. بل إن عالما أكثر مدنية هو عالم طنطي، مغناج. عالم بلا جيوش ولا حروب. الجيوش والحروب هي مصانع القبضايات والوحوش والعقائد القبضاوية.

الطهر المميت

الطنطية ليست إيديولوجيا احد، إنها النسخة السلبية للرجّالية القبضاوية. وهي اختراع مسجل باسم الأخيرة. الشيء الذي تقصيه وتتطهر منه كي تنتج الهوية الضافية المطلوبة. سمير، في أواخر عام 1979، وفي المؤتمر السابع لحزب البعث، اقترح السيد رفعت الأسد "إنشاء معسكرات تدريبية بغرض تخضير الصحراء وتصحيح المسار الوطني للخاطئين وطنياً، ويدعى إلى هذه المعسكرات كل من تحكم عليه المحاكم الشعبية التي تمتلك سلطة قانون التطهير الوطني". قانون التطهير الوطني هو اقتراح من قائد سرايا الدفاع ذاته "يطال كل منحرف عن المسار الوطني ممن يعتنق أي مبادئ هدامة تمس الفكر القومي أو السلامة الوطنية". بعد 7 شهور فقط حمّر الصحراء التدمرية، بدل ان يخضّرها، بدماء ألف من "الخاطئين وطنيا".

مستعرضا "أطر الجريمة وأساليب قمعها واجتثاثها بشكل ثوري عملي أصيل"، أبدع الرجل وقتها نظرية تدعو أن يكون العقل الأمني سريا كي لا تعرف نقاط ضعفه وتستبق تحركاته، سمّاها نظرية "سرية العقل الأمني".

كان معنيا بإحاطة أمن الأقوياء بسياج من السرية، تاركا الضعفاء منكشفين تحت رحمة اللامتوقع. وفقا لهذه النظرية "العمل الأمني فن مقدس لعقل مستنير". وربما من باب تدعيم السرية هذه اقترح أن يحصر "سكن القياديين في حي معين فيتهيأ لهم خلال هذا السكن وسط من الصداقات المتآلفة والهيبة العالية والأمن الكامل لأن شدة الاختلاط وبمستويات مختلفة متنافرة تجعل الرفيق معرضاً للانزلاقات التي يدبرها المتسللون والمفسدون والمخربون".

متأكد أن أول كلمة ستخطر في بالك، يا سمير، هي: فاشي! لا علاقة لي! إنها كلمتك أنت! من منافع الشهداء، يا سمير، اننا "نعترف عليهم" ونلصق بهم، امام المحققين، سوء أفعالنا ومناهضتنا لأهداف ثوراتنا المجيدة وانتمائنا لتنظيمات سرية تهدف الى قلب أنظمة حكمنا الوديعة. من نسّبك الى التنظيم؟ سمير! من تعرف من أعضاء التنظيم؟ سمير وهيثم ومنير ورضا...! من قال فاشي؟ سمير!.

كما هي عادة الثورات جميعا يُطرد الثوار أو يُقتلون وتطبّق برامجهم. أخفقت ثورة الرجل، لكن برنامجه طبّق ونظرياته مورست. ولا ريب أنك عرفت قبل سفرك الأخير أنه يخطط للعودة إلى البلاد من اجل "حماية الوحدة الوطنية"... بلا زيادة أو نقصان!

الباقي بديهي: القبضاوية عقيدة تطهير، ارتباطها بالشمولية متواتر وأكيد. لا فرق بين تطهير الطنطات أو "الخاطئين وطنيا" وتطهير المرضى والمشوهين في المانيا الهتلرية. حملات التطهير الستالينية كانت تستند الى مبدأ مماثل: خونة، رجعيون، مائعون.

الميوعة خصوصا صفة لا يطيقها الستاليني الصلب. رفعت كان يطالب بـ: "عزل المرضى قومياً ووطنياً بأمراض شتى من مثل الانتماء إلى الهرطقة الدينية أو التشبث بأفكار مستوردة أو مشبوهة والمريض بالتعصب القبلي أو العشائري أو العائلي... إلخ وتخليص المجتمع الصحيح من أوبئتهم وأمراضهم".

"مرضى وطنيا وقوميا"؟ هل قلتَ فاشي؟ الافكار المستوردة من لوازم نقاء العرق وصفاء الهوية وطهر الحزب و"تخليص المجتمع".

القبائل والعشائر والعوائل شوائب قديمة. المجتمع هوية أو ذات. الكمالة هي نظرية المؤامرة والبارانويا، وموتك! الطهارة تقتضي! ■

الكلمة القتيلة

جيرار خوري

لا عزاء ممكناً عندما نفقد صديقا ومؤرخا وصحافيا! كل ما في اغتياله يغضبنا ويصدمنا ويضنينا. ومن غير اللائق أن نتذكر مرة أخرى مثالية كفاحه وشجاعته ورموز افعاله، بغية أن نحوّله شهيدا وأن نقول إن موته سوف يوطد نضال اولئك الذين ناصرهم، وأن نخفف تاليا من وطأة عبثية موته. لقد كان هذا الموت عنيفا ولا يطاق، لا يطاق حتى متخيّلا، حدّ أنه يطيح أسباب كفاحه!

سمير قصير، عاشق الحياة، هو اليوم ضحية هذا العشق الذي كان يزعج اولئك المأخوذين فقط بثقافة الموت. هذا المتشرّب أفكار "اليسار الديموقراطي" وقع أيضا من دون شك ضحية مصالح سياسية داخلية وخارجية، وموته يزيدنا يأسا من امكان تغيّر حال الأشياء. واذ كان يجمع بين معرفته الشرق الاوسط واوروبا الغربية، فقد كان مثابرا على الأمل في أن الشقاء العربي لا بد سيفسح قريبا أمام ولادة نهضة عربية جديدة! لكن حلمه انكسر وتمزّق، مثله، جسديا ورمزيا. وقد أجبرنا موته هذا على ان ننظر عينا بعين الى قوى التفكيك التي تهددنا حاليا، في الشرق الاوسط ربما اكثر من اي مكان آخر، بالتخلع العقلي وبحظر التفكير. كيف يمكننا ان نعيش ما لا يحتمل، مشتتين هكذا بين ايقاع تاريخنا وشلل بنانا الفكرية وكلبية فسادنا من جهة، وبين العالم "الحديث" المزعوم من جهة ثانية؟ هذا العالم الذي يراد فرض قيمه علينا في شكل مصطنع، كما لو انها ضمادات باطلة المفعول، بينما تعيث في بلداننا سلطات سياسية اوتوقراطية في الداخل، وقوى خارجية مهيمنة.

كان سمير قصير يعلن بالصوت العالي أنه مؤمن بالاستيراد المتوازن لهذه القيم، قبل وقت طويل من محاولة فرضها علينا من الخارج. كان يريد أن يجد حلا لما لا حل له، وكان يجمع ما بين الفعل وتبصّر الذهن، ولهذا اسكتوه.

بقتل سمير قصير يريدون اخفاء شلل مجتمعاتنا، وكل خيبة الروح الشابة التي تعلو وتتحول اليوم بذور حقد وكراهية. بقتله يقتلون الكلمة الحرة بهدف الاستمرار في تدجين العقول والقلوب ■